المبحث الثالث
(جمع الكُتب والتأسيس للمكتبات)

لقد كانِ الكتاب ولازال الوِعاء الحقيقي للنشاط الفِكري والحضاري البشري، فهو ايضاً الوسيلة المُثلى لنقل المعارف بين الأجيال والأُمَمْ، خاصةً إذا عَلِمنا أن تأريخ البشرية لم يبدأ إلا حينَ ظَهَرَت الكتابة، وبِشكلٍ من الأشكال، وعليهِ فلا معرِفة بدون إعلام بالتدوين، وعكسَت إزدهار الكُتبِ والمكتبات وبِإنواعِها في الأندلس الصُورة الصادقة لِعَملية الإزدِهار العِلمي والثقافي في موكِب الحضارة الأندلسية، كما كان الكتاب من وسائل الإتصال العلمي بين الأندلس والشرق العربي، بَلْ وتَعَدى ذلِكَ إلى الإقتباس والنقل الحضاري الى أوربا.

نشطت الحركة العلمية في الأندلس في الأندلس في العصر الأموي، وما تلاهُ من العهود العربية الإسلامية فيها، وعلى الأخص في عهد الخلافة، نشاطاً لامثيل له، حتى غدت الاندلس بحق قاعِدةً للعلوم ومركزاً للأداب، وأصبح إسم الأندلس يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالعلم، فقد شغل العلمُ الذي يعني حياة الفكر،إهتمام المسلمين في الأندلس، أكثر من أي شيئ أخر[1].

ومعلومٌ بالضرورة، أن من سِمات كُلِ نهضةٍ علميةٍ كانت أو أدبية، هيَ في حركة جمع وإقتناء الكتب وإنشاء المكتبات، لِما تحويهِ الكُتب من ثَمرات الفكر الإنساني، والتي تُعدُ وسيلة مهمةً من وسائل العلمِ والمعرفة.

ولما كانت الأندلس قد دخلت ميدان الحياة العلمية، فقد أعطت للكتاب المنزلة اللائقة، في خِضمِ النشاط العلمي الذي عايشتهُ [2].

فجمع الكتب وإقتنائها والتاسيس للمكتبات الخاصة والعامة رافدٌ من روافد ازدهار الحركة الفكرية في الأندلس، ونتيجة لإزدهار الحركة العلمية والإقبال الشديد على الكتب والتأليف العلمية، كانت قرطبة تحتل الصدارة في هذا النشاط، فان أهلها أكثر الأندلسين عناية بالكتب[3].

---

(1) الشلقمي، حامد ذياب، الكتب والكتبات في الاندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص 56.
(2) البشري، الحياة العلمية، ص 112.
(3) م. ن، 113.

وقد وصف المقري عناية الأندلسيين بإقتناء الكتب:

((هي أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشدُّ الناسِ إعتناء بخزائن الكتب، وصار ذلك عِندهم من ألات التعين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لاتكون عندهُ معرفة، يحتفل في أن تكون في بيتهِ، خِزانة كُتب، أو أن الكتاب الفلاني ليسَ هوَ عند أحدٍ غيرهُ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حَصَلهُ و ظفَرَ بِهِ))[1].

والأمر لم يقتصر على هذا فقط، بل تعداهُ الى المنافسة والتباهي في إمتلاك الكتب والمكتبات بين ربوع المدن الأندلسية الكُبرى،حتى أنهُ قامت مناظرات كُبرى بين علماءها المعتبرين في تِلكُم المسألة، منها المناظرة التي تمت بين يد سلطان الموحدين،أبي يوسف المنصور بن عبد الرحمن (ت595هـ) والتي دارت بين عالِمين من عباقِرة العِلم والفلسفة الأندلسية هُما ابن رشد القرطبي الفيلسوف (52.ـ 595هـ)والطبيب العالم إبن زهر(ت486-557هـ)، في تفضيل إشبيلية على مدينة قرطبة، فأنبرى لهُ أبن رشد قائلاً:

((ما أدري ما تقول، غير أنهُ أذا مات عالمٌ في إشبيلية فأريد بيع كتبهِ حُملت إلى قرطبة حتى تُباع فيها، وإن ماتَ مُطربٌ بقرطبة،فأريدَ بيع ألاتهُ،حُمِلتْ الى إشبيلية))[2]، فهذا دليلٌ على قمة الرقي العلمي والثقافي المتحضّرالتي وّصلت إليها الأندلس وإزدهار المعارف والفنون في حواضر مدن الأندلس وباقي مدنها.

بلغ من عناية أهل أندلس وبكل طبقاتهم،الإهتمام بإقتناء الكتب وتأسيس المكتبات وبأنواعها، لما للكتاب من قدسية خاصة في عقولهم وقلوبِهم، فقد أثبتوا بالإرادة الواعية الحضارية في ترسيخِ وإزدهار العقلية العلمية في الأندلس، من خلال شَغَفهم وعنايتهم بالكتب والمكتبات، الإعتناء و الإهتمام بالكتب من خلال جودة الخط و جمال تجليدها بأفخر أنواع الجلود الرقيقة،وتلوينها بالزخرفة الموشاة بالألوان الزاهية الرئعة، وربما في بعض الأحيان بماء الذهب، حسب أهمية وقيمة الكتاب وأهميتهِ العلمية، وشهرة مؤلفهِ.

---

(1) نفح الطيب، ج1 ص 462ص 463.

(2) م. ن، ج1 ص 155؛ بروفنسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ب/ت، ص 70.

وقد وصفِ ابن الأبار مكتبة الخليفة الحكم المستنصربالله:

((وقَلما نجدُ لهُ كتاباً ولاديواناً من خزائنهُ، إلا ولهُ فيهِ قراءةٌ ونظر من أي فنٍ كانَ يقرأهُ، ويكتب فيهِ بخطهِ أما في أولهُ، أو في أخرهُ،أو في تضاعيفهُ))[1]

حتى أصبح حال الحكم المستنصر بالله مع كتبه مشهوراً ومعلوماً ذكره بين كتاب وعلماء السّير والتراجم في الأندلس[2].

كما بلغ الكتاب في عهد ملوك الطوائف أرقى منزلة وأعظم مكانة في قلوب طلاب العلم وبمختلف مشاربهم وميولهم الفكرية، فَنالَ الكتاب الكثير من العناية والإهتمام، ليس في السعي الى تملكهِ، بل تعداهُ الى مايتصل، بالنسخ المُتقن والخط البديع والتجليد الفاخر،الى غير ذلك[3].

غدت قرطبة تجتذب طلاب العلم من كل أنحاء الشرق بل والغرب الأوربي و تجذبهم بمدارسها العليا ومكتباتها العظيمة التي جمعَ لها الخليفة الحكم الثاني وهو من أشهر عُلماء عصرهُ، نصف مليون من الكُتب القيمة،جمعها لهُ عشرات من رِجالهُ[4].

ونستدلُ على حب أهل قرطبة للكتبِ ما نقلهُ المقري عن أحدهم:

((أقمتُ مَرةً بقُرطبةَ ولازمتُ سوقَ كُتُبها مُدة،أترَقّبُ فيهِ كِتابٌ كان لي بِطَلبِهِ إعتناء، إلى أن وقَعَ وهُوَبِخطٍ فصيح وتسفيرٍ مليح، فَفَرِحتُ أشدَ الفرح، فجعلتُ أزيد في ثَمَنِهِ، فيرجعُ الى المُنادي بِالزِيادة عليَ إلى أن بَلَغَ فَوقَ حَدِهِ، فقلتُ ياهذا،أرِني من يَزيدُ في هذا الكتاب، حتى بَلَّغَهُ إلى مالايُساوي، قالَ: فَأراني شخصاً عليهِ ثِياب الرياسة فَدَنوتُ مِنهُ، وقُلتُ لهُ: أعزَاللهُ سيدنا الفقيه، إن كان لَكَ غرضٌ في هذا الكتاب تَركتَهُ لَك، فقد بَلَغتْ فِيهِ الزيادة بيننا فَوقَ حدِهِ ؟، فقال لي: لستُ بفقيهٍ، ولا أدري ما فيهِ، ولكني إفتتَحتُ خزانةَ كتبٍ، وإحتفلتُ فيها لأتّجمّلَ بِها بين اعيانِ البلد،وبَقيَ فيها موّضِعٌ يَسِعُ هذا الكتاب، فلما رأيتُهُ حَسنٌ الخطِ، جيد التجليد، إستحسنتُهُ، ولم أُبالِ بما أزيدُ فيهِ، والحمدُ للهِ على ما أنعمَ من الرزقِ، فهوَ كثير، فَأحرجني، وَحَمَلني على أن قُلتُ لَهُ: نعم لايكونُ الرزقُ كثيراً إلا عِندَ مِثْلُك، يُعطي الجوزَ مَنْ لا أسنانَ لَهُ، وأنا الذي أعلمُ ما في الكتاب، وأطلبُ الإنتفاعَ بِهِ، يكونُ الرزقُ عِندي قليلاً وَتَحُولُ قِلَةِ ما بيدي بيني وبينَهُ))[5].

وهكذا فإن جمع الكتب وإقتنائها لم يكن وقفاً على الأمراء والخلفاء فقط، وإنما شملت عامة الأندلسين،حتى غدتْ المنافسة في إقتناء الكُتب علامة من علامات الرفعةِ والسُؤدد، والذي بِدورهُ يصبُ في الإرتقاء العلمي، وسمة من سماتها الراقية.

وعليهِ فإن الرغبة الشديدة عند الأندلسيين في تعلم القراءةِ والكتابة، كانت تدفَع عجلة الثقافة وتمدها بأسباب القوة والإنطلاق، حيث أصبحَ الناس قادرين على القراءة والكتابة [6]، وللحاجة الماسة أمام التطوّر العلمي الحثيث ظهرت طبقة حرفية جديدة في المجتمع الأندلسي

---

(1) الحلة السيّراء،، ج1، ص 203.

(2) رستم، تعليقات الحكم المستنصر بالله الأندلسي على الكتب، ص 67.

(3) بعيون، سهى إسهام علماء المسلمين في العلوم في الأندلس، عصر ملوك الطوائف، (422-497هـ / 1031 – 1086م) دار المعرفة، بيروت، 1429هـ – 2008 م، ص190.

(4) ينظر ابن الأبار، الحلة السيراء،، ص178 ص188؛ هونكه، شمس العرب،، ص 353.

(5) نفح الطيب، ج1 ص 463.

(6) الشافعي، الكتب والمكتبات في الاندلس،، ص 59.

عَملهم ابداً النسخ وتجليد الكتب وبيعها، عُرّفوا بطبقة الوراقين، الذين كان لهُم دور في إنتاج الكتب ونسخِها وتجليدِها التجليد النفيس في الأندلس[1].

فقد بلغ الحرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء في الأندلس على جلب الكتب وتأسيس المكتبات، ومن أشهرهم الخليفة الحكم المُستنصربالله، الذي أسسَ مكتبةً عظيمة حوت أربعمائة الف مجلد وفي علومٍ شتى [2]، أما مكتبات الأندلس العامة فقد بلغت حوالي السبعين مكتبة عامة [3]، ونقل ابن الأبار في وصف مكتبة الخليفة الحكم المستنصربالله: ((ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم، وأن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكُتب، أربع وأربعون، وفي كل فِهرسةٍ خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذِكر أسماء الدواوين فقط))[4].

ومن الوزراء الذين إشتهروا بمكتباتهم العامرة، عبدالرحمن بن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة(ت 406هـ) الإمام العلامة المحدث، والذي جمع من الكتب مالم يجمعهُ أحد من أهل الأندلس[5].

وفضلاً المكتبات الخاصة كمتبات الأمراء والخلفاء واعيان الأندلس حفل الأندلسُ بالمكتبات العامة التي إزدانت بها حواضِرها، منها مكتبات المساجد والجوامع، إذ قلما يخلو مسجدٍ او جامع من مكتبةٍ مُلحقةٍ بها للتعليم والتثقيف كمكتبة جامع قُرطبة و مكتبة جامع طليطلة، والمكتبات المدرسية والمكتبات الاكاديمية والمكتبات العلمية الملحقة بالمشافي (البيمارستانات)[6]،إذ أصبحَ من النادر أن تخلو مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو غير ذلك من معاهد العلم دون أن تجد مكتبةً عامرة مُلحقة بها [7].

وتبين ان جمع الكُتب والتاسيس للمكتبات الخاصة والعامة، كان عامِلاً مهماً من عوامِل إزدِهار الحركة الفكرية في الأندلس، بَل أصبحت مما إمتازت به الأندلس عن غيرها،برغبة الخلفاء في ذلك،وكما علمنا ان الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، كانَ مهتماً بجمع الكتب المهمة التي لدى الامم الأخرى،في العلوم القديمة،فبعث الى مراكز الحضارة في المشرق، ولاسيما بغداد ومصر للحصول على نوادر المؤلفات والكتب، واكمل المسيرة من بعده ابنه الخليفة الحكم المستنصر بالله الذي جمع ما يمكن جمعه من الكتب والمصنفات الثمينة[8]، حتى الاندلس وعاصمتها قرطبة بمكتباتها تضاهي مكتبات الشرق في بغداد ومصروالشام، مما ساهم وبشكل فاعل إزدهار الثقافة والعلوم في الأندلس[9].

---

(1) م. ن، ص 66؛ البشري، الحياة العلمية، ص 126.
(2) دويدارد، المجتمع الأندلسي، ص 384.
(3) الحجي، تأريخ الأندلس، ص 317؛ عنان، دولة الاسلام في الاندلس الخلافة الاموية، ص701.
(4) الحلة السيراء،، ص 179؛ المقري، نفح الطيب، ج1 ص 394.
(5) النباهي، إبي الحسن الأندلسي (739هـ/ 1390م) تأريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق، مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، 1415هـ - 1995م، ص 116.
(6)الشافعي: الكتب والمكتبات في الاندلس، ص 100.
(7) عزب، محمد سعيد، الحياة الفكرية في إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي (429- 628هـ /1037-1230م)، نشر شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 1430هـ - 2009م، ص 114.
(8) صاعد الأندلسي، القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد (ت 462هـ/ 1069م، طبقات الامم، نشر وإعتناء لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912م، ص 101.
(9) محاسنة، محمد حسين، أضواء على تأريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين – الإمارات العربية المتحدة، 2000 – 2001 م، ص ص 159-160.

ذلك أن الحاجة الماسة إلى الكتب والتآليف العلمية في عهد الخلافة في الأندلس، والذي كانَ نتيجة لإزدهار الحركة العلمية و الإقبال الشديد على المعرفة، وكانت قرطبة تحتل الصدارة في النشاط و الإزدهار العلمي، فكان أهلها أكثر الأندلسيين عناية و إهتماماً بالكتب[1].

وكان من أثار إزدهار الحركة الفكرية في الأندلس،عهد ملوك الطوائف ذيوع المكتبات العامة والخاصة، ذيوعاً ملفتاً للنظر، وشملت هذهِ المكتبات أنفس و أجود أنواع الكتب، وغدت كل مدينة أندلسية عاصمة لمملكة كبيرة كانت أو صغيرة، وكان أمرائها يتنافسون في إقتناء الكتب النفيسة والنادرة[2].

ولما سبق ذكره فقد تبين لنا أن الأندلس وعاصمتها قرطبة أصبحت تنافس بغداد والقاهرة في الشرق، بما حوت مكتباتها الخاصة و العامة من أمهات الكتب الأصيلة، مما ساعدت على الإزدهار العلمي والثقافي في الأندلس، فأصبحت محط أنظار طلاب العلم والمعرفة في أوربا وبهذا أصبحت الأندلس مركز إشعاع حضاري للعالم في القرون الوسطى، لأن إستجلاب الكتب والتأسيس للمكتبات وبكل أنواعها، عامل مهم من عوامل الإرتقاء الحضاري وسمة من سمات التطوّر العلمي التي تميّزت به الحضارة الإسلامية في الأندلس.

(1) البشري، الحياة العلمية، ص 112.
(2) بعيون، إسهام العلماء، 192.